حياة أعظم الرسل

مُحَمَّد يدخُل مَكَّةَ

مُحَمَّد يدخل مَكَّةَ

مَرَّت السَّنَةُ الَّتِى اتُّفِقَ عَلَيهَا فِى مُعَاهَدَةِ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَأَصبَحَ لِلْمُسلِمينَ الْحَقُّ فِى دُخُولِ مَكَّةَ ، وَزِيَارَةِ الْكَعْبَةِ ، وَأَدَاءِ الْفَرِيضَةِ . وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنصَارُ فِى شَوقٍ إِلَى زِيَارَةِ الْبَيتِ الْحَرَامِ . فَنَادَى الْمُصطَفَى بِالِاستِعدادِ لِلسَّفَرِ إِلَى مَكَّةَ . وَأَجَابَ النِّدَاءَ أَلْفَانِ مِنَ الْمُسلِمينَ ، وَحَمَلَ كُلٌّ سَيفَهُ فِى قِرابِهِ . وَرَكِبَ مُحمدٌ نَاقتَهُ ، وَتَقَدَّمَهُمْ

لِزِيَارَةِ أُمِّ الْقُرَى ــ وَهِىَ مَكَّةُ ــ . وَأَخَذَ كُلُّ مُسلِمٍ يَذكُرُ لِمَن مَعَهُ أَيَّامَ طُفُولَتِهِ بِهَا ، وَمَا ضَحَّى مِنَ الْمَالِ بِسَبَبِ هِجرَتِهِ مِنهَا .

وَعَرَفَتْ قُرَيشٌ بِمَجِىءِ مُحمدٍ وَأَصحَابِهِ إِلَى مَكَّةَ ، فَتَرَكَتْهَا وَخَرَجَتْ وَأَقَامَت الْخِيَامَ فِى التِّلالِ الْقَرِيبَةِ مِنهَا ــ لِلْمُكْثِ بِهَا مُدَّةَ الْأَيَّامِ الثَّلاثَةِ . وَأَخَذُوا يَنظُرُونَ نَظرَةَ إِعجَابٍ ــ إِلَى الرَّسُولِ الَّذِى طَرَدُوهُ ، وَهُوَ يَقُودُ الْمُسلِمِينَ عِندَ دُخُولِ مَكَّةَ ، وَرَأَوْهُمْ وَهُم جَمِيعًا أَمَامَ الْكَعْبَةِ ، يُنَادُونَ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ ، وَقُلُوبٍ مُؤْمِنَةٍ

مُتَّجِهَةٍ إِلَى اللهِ : « لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ »(١) . طَافَ الـرَّسُولُ بِالْكَعْبَـةِ ، وَالْمُسلِمُــونَ وَرَاءَهُ يَطُوفُونَ وَيُرَدِّدُونَ مَا يَقُولُ : لَبَّيْكَ اللَّهُـمَّ لَبَّيْكَ . لَا إِلٰـهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ . نَصَرَ عَبدَهُ . وَأَعَزَّ(٢) جُندَهُ . وَهَـزَمَ الْأَحزابَ وَحـدَهُ . وَأَتَمَّ مُحمدٌ وَمَنْ مَعَهُ فَرَائِضَ الْعُمْرةِ(٣) .

وَفِى الْيومِ التَّالِى دَخَلَ الرَّسُولُ الْكَعْبَةَ ، وَمَكَثَ بِهَا إِلَى صَلَاةِ الظُّهرِ ، وَأَذَّنَ بِلَالٌ لِلصَّلَاةِ ، وَصَلَّى النَّبِىُّ بِأَلْفينِ مِنَ الْمُسلِمِينَ

---

(١) نَحنُ مُطِيعونَ لَكَ . (٢) نَصرَهَم .

(٣) زِيَارَةُ الكَعبةِ وَمَا تتلبُهُ مِن عِبَادَاتٍ .

آمِنِينَ . وَأَقَامَ المُسلِمُونَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَزَارَ الْمُهَاجِرُونَ دُورَهُم الَّتى تَرَكُوهَا ؛ وَأَخذَ الرَّسُولُ يَتَنَقَّلُ بَيْنَهُم ، وَيَتَحدَّثُ مَعَهُم . وَأَهلُ قُرَيشٍ يُطِلُّونَ عَلَى الْمُسلِمِينَ ، وَيَرَوْنَهُم وَهُم يُصَلُّونَ خَلفَ الرَّسُولِ ، وَيُعجَبُونَ بِهِم ، وَالأَقوِيَاءُ مِنهُم يُسَاعِدُونَ الضُّعَفَاءَ ، وَالْأَغنِيَاءُ يُحسِنُونَ إِلَى الْفُقَرَاءِ . وَكُلُّهُم لَا يَشرَبُونَ الْخَمْرَ ، وَلَا يَعصُونَ اللهَ .

أَثَّرَتْ هٰذِهِ الْمَنَاظِرُ فِى نُفُوسِ الْمُشرِكِينَ(١) كُلَّ التَّأْثِيرِ ، وَتَرَكَتْ زِيَارَةُ

---

(١) الْكُفَّارِ .

مُحمدٍ لِلْكَعْبَةِ أَكبَرَ الْأَثَرِ فِى قُلُوبِ قُرَيشٍ .

وَبعدَ انقِضَاءِ هـٰذِهِ الأَيَّامِ الثَّلاثَةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيهَا تَرَكَ مُحمدٌ وَأَصحَابُهُ مَكَّةَ ، وَسَافَرُوا جَمِيعًا إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

إِسلَامُ خَالِدِ بنِ الْوَلِيدِ :

وَبَعدَ أَن تَرَكَ مُحمدٌ مَكَّةَ ، وَقَفَ خَالِدُ ابنُ الوَلِيدِ يَقُولُ لِلْمُشرِكِينَ : « لَقَد استَبَانَ (ظَهَرَ) لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنَّ مُحَمَّدًا لَيس بِسَاحِرٍ ، وَلَا شَاعِرٍ ، وَأَنَّ كَلَامَـهُ مِن كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَوَجَبَ عَلَى كُلِّ صَاحِبِ عَقلٍ أَن

يُؤمِنَ بِمَا يدعُو إِلَيهِ » .

وَعَارَضُوهُ فِى رَأْيِهِ وَلٰكِنَّهُ لَم يَهتَمَّ بِأَقوَالِهِم ، بَعدَ أَن ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ . وَأَرسَلَ إِلَى النَّبِىِّ يُقِرُّ لَهُ بِأَنَّهُ أَسلَمَ . وَأَرَادَ الْكُفَّارُ أَنَ يَقتُلُوهُ . فَقَالَ أَحَدُهُم : أَتُرِيدُونَ أَن تَقتُلُوا خَالِدًا مِن أَجلِ رَأيٍ رَآهُ . إِنِّى وَاثِقٌ أَنَّهُ لَن تَمضِىَ سَنَةٌ حَتَّى يَتبَعَ أَهلُ مَكَّةَ كُلُّهُم مُحَمَّدًا فِى دِينِهِ . وَأَسلَمَ عَمرُو بنُ الْعَاصِ بَعدَ خَالِدٍ . وَستُسلِمُ قُرَيشٌ كُلُّهَا بَعدَ شُهُورٍ بِإِرَادَةِ اللهِ .

قُرَيشٌ تَنقُضُ المُعَاهَدَةَ :

نَقَضَت قُرَيشٌ عَهدَ الْحُدَيبِيَةِ ، فَقَتَلَ بَنُو بَكرٍ رِجَالًا مِن مُسلِمِى خُزَاعَةَ ، فَشَكَت خُزَاعَةُ إِلَى النَّبِىِّ ، فَرَأَى النَّبِىُّ أَنَّ مَا قَامَت بِهِ قُرَيشٌ مِن نَقضِ الْعَهدِ لَا مُقَابِلَ لَهُ إِلَّا فَتحُ مَكَّةَ . فَأَرسَلَ النَّبِىُّ إِلَى الْمُسلِمِينَ فِى شِبهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِيَستَعِدُّوا لِلرَّحِيلِ وَلَم يَذكُرْ لَهُم الغَرَضَ .

خَافَ كِبَارُ قُرَيشٍ بَعدَ أَنْ نَقَضُوا الْعَهدَ ، وَأَرسَلُوا أَبَا سُفيَانَ لِتَثبِيتِ الْمُعَاهَدَةِ ،

فَذَهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى بَيتِ ابنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوجِ النَّبِيِّ ، وَزَارَهَا ، وَأَرَادَ أَن يَجلِسَ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ فَطَوَتْهُ . فَسَأَلَهَا أَبُوهَا عَنِ السَّبَبِ فِي طَيِّ الفِرَاشِ .

فَأَجَابَت : هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ وَأَنتَ مُشرِكٌ نَجِسٌ ، فَلَم أُرِدْ أَن تَجلِسَ عَلَيهِ . فَخَرَجَ أَبُوهَا وَهُوَ غَاضِبٌ . وَقَابَلَ الرَّسُولَ وَكَلَّمَهُ فِي مُعَاهَدَةِ الصُّلْحِ وَتَثبِيتِهَا ، فَلَم يَرُدَّ عَلَيهِ النَّبِيُّ بِشَيْءٍ .

أَخبَرَ أَبُو سُفيَانَ قُرَيشًا بِمَا حَدَثَ ، وَأَخَذَت قُرَيشٌ تَتَشَاوَرُ فِي الْأَمرِ . وَأَخبَرَ

رَسُولُ اللهِ أَبَا بَكرٍ الصِّدِّيق بِمَا عَزَمَ عَلَيهِ .
فَقَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَلَيسَ بينكَ وَبَينَ قُرَيشٍ عَهدٌ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ : بَلَى (نَعَمْ) .
وَلٰكِنهُمْ غَدَرُوا وَنَقَضُوا الْعَهدَ .

وَاحتَفَظَ الرَّسُولُ بِالْخُطَّةِ حَتَّى لَا يَنتَشِرَ الْخَبَرُ ، وَتَعلَمَ قُرَيشٌ ، فَتَستَعِدَّ لِلْحَربِ وَالرَّسُولُ لَا يُرِيدُ حَربًا بِمَكَّةَ ، وَلَا يُحِبُّ أَن تُمَسَّ حُرْمَتُهَا ، وَيُرِيدُ أن يُسلِمَ أَهلُهَا مِن غيرِ أن تُرَاقَ نُقطَةٌ مِنَ الدَّمِ . فَدَعَا اللهَ وَقَالَ « اللَّهُمَّ خُذِ الْعُيُونَ(١) وَالْأَخبَارَ عَن قُرَيشٍ

---

(١) الجَوَاسِيس .

حَتَّى نبغتَهَا(١) فِى بِلَادِهَا » . وَلَا تَعلَمَ شَيئًا مِن أَمرِنَا . وَاستَعَدَّ الْمُسلِمُونَ ، وَأَخبَرَهُمُ الرَّسُولُ أَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ . وَتَحَرَّكَ الْجَيشُ وَعَدَدُهُ عَشَرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ ، وَفِى مُقَدَّمَتِهِم مُحمدٌ الْعَظِيمُ ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِى أَمرٍ وَاحِدٍ هُوَ أَن تُفتَحَ مَكَّةُ ، وَيُطَهَّرَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ مِنَ الْأَصنَامِ مِن غَيرِ أَن تُرَاقَ قَطرَةٌ واحِدَةٌ مِنَ الدَّمِ .

سَارَ الْمُسلِمُونَ وَهُم مُؤمِنُونَ بِنَصرِ اللهِ ، وَانضَمَّ إِلَيهِم فِى الطَّرِيقِ كَثِيرٌ مِنَ الْقَبَائِلِ ، وَقَرُبُوا مِن مَكَّةَ ، وَلَم تَعلَمْ قُرَيشٌ مِن أَمرِهِم

(١) تُفَاجِئَهَا وَتَلْقَاهَا فَجْأَةً .

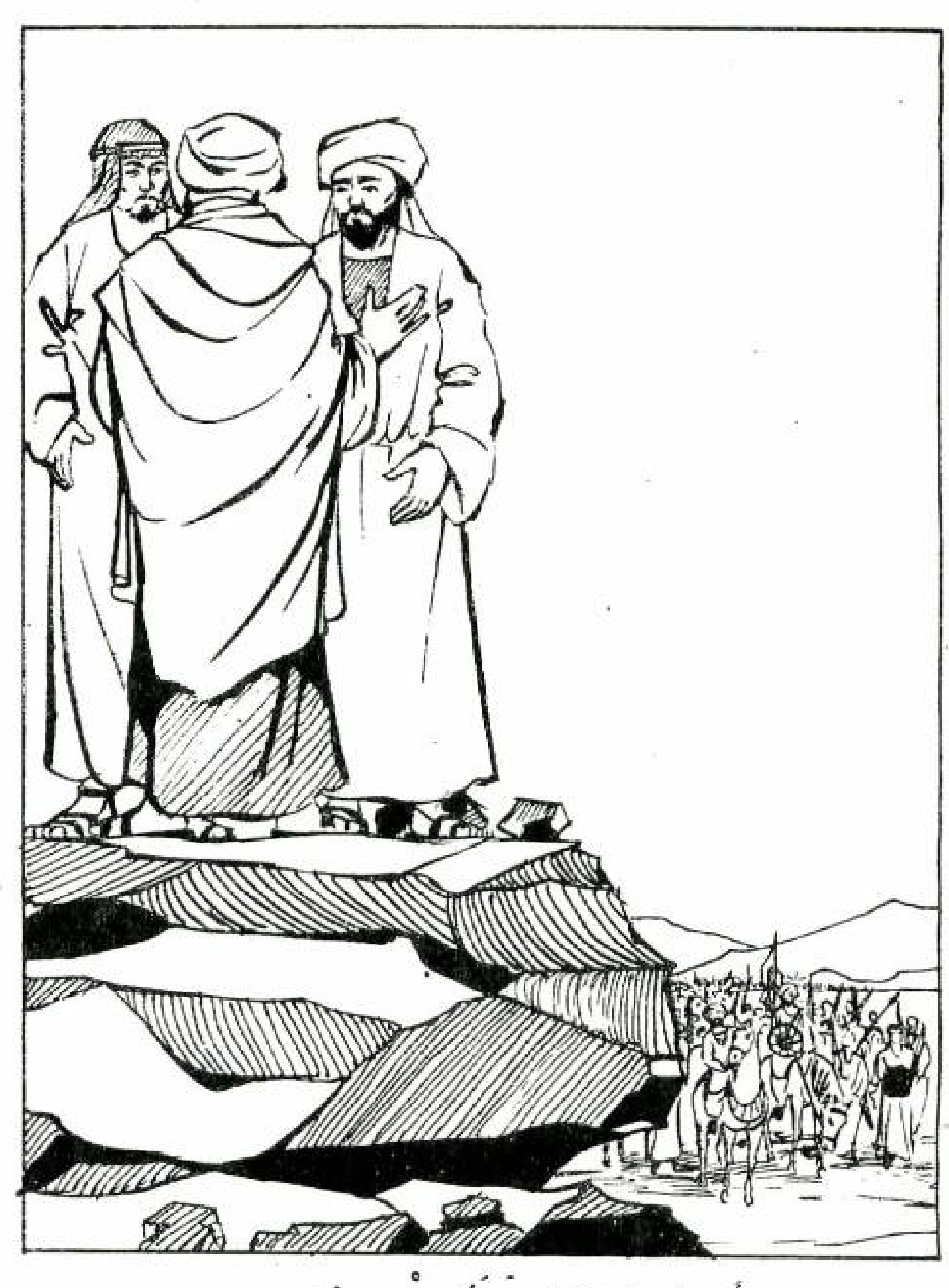
شَيئًا ، وَكَانَت فِي جَدَلٍ مُستَمِرٍّ ، وَتَفكِيرٍ فِيمَا تَفعَلُ حَتَّى لَا يَهجُمَ عَلَيهَا مُحمدٌ .
وَأَجَابَ اللهُ دُعَاءَ الرَّسُولِ .

أَحسَّ بَنُو هَاشِمٍ بِخُرُوجِ النَّبِيِّ إِلى مَكَّةَ ، فَخَرَجُوا لِمُقَابَلَتِهِ ، فَعَطَفَ عَلَيهِم ، وَعَفَا عَمَّن أَسَاءَ إِلَيهِ مِنهُم ، وَقَبِلَ إِسلَامَهُم .

وَتَرَكَ العَبَّاسُ عَمُّ النَّبِيِّ قُرَيشًا فِي جَدَلِهِم وَمُنَاقَشَتِهِم ، فَقَابَلَ مُحمدًا فِي الطَّرِيقِ ، فَأَمَرَهُ أَن يَرجِعَ مَعَهُ إِلَى مَكَّةَ ، وَيُرسِلَ أَولَادَهُ إِلى الْمَدِينَةِ . وَأَسلَمَ الْعَبَّاسُ وَلٰكِنَّهُ خَافَ أَن تُدَمَّرَ (تُخَرَّبَ) مَكَّةُ إِذَا هَجَمَ

عَلَيهَا هٰـذا الْجَيشُ الْقَوِىُّ مِنَ الْمؤْمِنِينَ .
وَتَأَكَّدَ مِن أَنَّهُ لَن تَستَطِيعَ أَىُّ قُوَّةٍ فِى بِلَادِ الْعَرَبِ أَن تَقِفَ أَمَامَهُ . فَسَأَلَ الرَّسُولَ : مَاذَا تَفعَلُ إِذَا طَلَبَت قُرَيشٌ مِنكَ الْأَمَانَ ؟ فَسُرَّ الرَّسُولُ ، وَجَعَلَ عَمَّهُ سَفِيرًا لِيَصِفَ لِقُرَيشٍ قُوَّةَ هٰـذَا الْجَيشِ ، حَتَّى يُدخِلَ الرُّعبَ (الْخَوْفَ) فِى قُلُوبِ الْكُفَّارِ ، فَيَدخُلَ الرَّسُولُ وَأَصحَابُهُ مَكَّةَ مِن غَيرِ أَن تُرَاقَ نُقطَةٌ مِنَ الدَّمِ ، وَتَستَمِرَّ مَكَّةُ حَرَامًا كَمَا كَانَت وَكَمَا يَجِبُ أَن تَكُونَ .

رَكِبَ الْعَبَّاسُ ، وَأَخَذَ يَبحَثُ عَن مَكِّىٍّ



أبو سُفيَانَ يَتكَلمُ عَن قُوَّةِ جَيْشِ الْمُسلِمينَ.

ذَاهِبٍ إِلَى مَكَّةَ ، لِيُرسِلَ إِلَى أَهلِهَا رِسَالَةً يَصِفُ فِيهَا مَا رَآهُ مِن شَجَاعَةِ الْمُسلِمِينَ وَقوَّةِ جَيشِهِم ؛ كَى يَطلُبُوا مِنَ الرَّسُولِ الأَمَانَ قَبلَ أَنْ يَدخُلَهَا عَلَيهِم عَنْوَةً وقَهْرًا .
وَكَانَت قُرَيشٌ قَد بَلَغَهُم أَنَّ مُحَمَّدًا زَاحِفٌ بِجَيشٍ عَظِيمٍ لَا تُعرَفُ وِجهَتُهُ ، فَأَرسَلُوا أَبَا سُفيانَ وَبَعضَ الفُرسَانِ . فَرَآهُم الْعَبَّاسُ وَأَخبَرَهُم بِمَا رَأى ، وَأَخَذَ أَبَا سُفيانَ إِلَى النَّبِىِّ . وَرَأَى أَبُو سُفيَانَ قُوَّةَ جَيشِ الْمُؤْمِنينَ . وَتَأَكَّدَ مِن أَنَّ قُرَيشًا لَا طَاقَةَ لَهَا بِهِ . فانطَلَقَ إِلَى قَومِهِ بِمَكَّةَ صَائِحًا :

يَا مَعشَرَ (جَمَاعَةَ) قُرَيشٍ ، هـٰذَا مُحمدٌ قَد جَاءَكِم فِيمَا لَاطَاقَةَ (قُدرَةَ) لكُمِ به .

سَارَ مُحمدٌ بِجَيشِهِ ، وَرَأَى أَنَّ مَكَّـةَ لَاتُقَاوِمُ ، فَدَخَلَ الرَّسُولُ والمُسلِمُونَ فِى صُبحِ الْجُمُعَةِ ٢٠ مِن رَمَضَانَ . وَدَخَـلَ الْكَعبَةَ ، وَكَبَّرَ فِى نَوَاحِيهَا ، وَطَافَ بِهَا سَبعًا ، وَحَطَّمَ ٣٦٠ صَنَمًا كَانَت حَولَهَا وَهُوَ يَقولُ : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهقَ البَاطِلُ ، إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًـا . » ثُمَّ جَلَسَ فِى الْكَعْبَةِ ، وَقُرَيشٌ يَنتَظِرُونَ مَا هُوَ فَاعِلٌ بِمَن عَذَّبُوهُ وَتَآمَرُوا عَلَى قَتْلِهِ ، وَأَخرَجُوهُ مِن

بِلَادِهِ ، فَسَأَلَهُم : يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ ، مَا تَظُنُّونَ أَنِّى فَاعِلٌ بِكُم ؟ فَقَالُوا : خَيرًا ، أَنتَ أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ . فَقَالَ الرَّسُولُ : اِذهَبُوا فَأَنتُم الطُّلَقَاءُ (أَحرَارٌ) .